الفصل الرابع
غَزْوَةُ دُومَةِ الجَنْدَلِ [١]
الأحد ٢٥ ربيع الأول ٥هـ/ ٢٤ أغسطس ٦٢٦ م/ مسرى ٣٤٢ قبطي
المبحث الأول
عرض غَزْوَة دُومَةِ الجَنْدَلِ

تاريخها:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى المدِينَةِ، فَأَقَامَ مِنْ مَقْدَم رَسُولِ الله ﷺ بِهَا أَشْهُرًا حَتَّى مَضَى ذُو الحِجَّةِ، وَوَلِيَ تِلكَ الحِجَّةَ المَشْرِكُونَ، وَهِيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ، ثُمَّ غَزَا رَسُولُ الله ﷺ دَوْمَةَ الجَنْدَلِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٣].

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ [وابن هشام]: فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ عَلَى رَأْسِ تِسْعَةٍ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا، خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ لِخَمْسِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، وَقَدِمَ لِعَشْرٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ الآخَرِ. [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٢].

سبب الغزوة:

وسبب تجريد هذه الحملة هو أن استخبارات الجيش النبوي حصلت على معلومات مفادها أن قبائل دومة الجندل قد أخذوا في التجمع لغزو المدينة، وأنهم يخيفون الناس ويقطعون الطريق ويظلمون من يمر بهم.

روى الواقدي عن شيوخه: «قَالُوا: أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَدْنُوَ إِلَى أَدْنَى الشَّامِ (أقربها إلى المدينة)، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا طَرَفٌ مِنْ أَفْوَاهِ الشَّامِ، فَلَوْ دَنَوْتَ لَهَا كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يُفْزِعُ قَيْصَرَ، وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ بِدُومَةِ الجَنْدَلِ جَمْعًا كَثِيرًا، وَأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ مَنْ مَرَّ بِهِمْ مِنْ الضَّافِطَةِ (جمع ضافط، وهو الذي يجلب الميرة والمتاع إلى المدن)، وَكَانَ بِهَا سُوقٌ عَظِيمٌ وَتُجَّارٌ، وَضَوَى إِلَيْهِمْ قَوْمٌ مِنْ العَرَبِ كَثِيرٌ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَدْنُوا مِنْ المَدِينَةِ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣].

اسْتِعْمَالُ ابْنِ عُرْفُطَةَ ﷺ عَلَى المدِينَةِ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ وَالوَاقِدِيُّ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ الغِفَارِيَّ ﷺ.

النفير العام وخروج الجيش الإسلامي:

وعلى عادة النبي ﷺ المتبعة في سلوك خطة المباغتة وتأديب الأعراب بنقل المعركة إلى مضاربهم بسرعة، جهز قوة خفيفة قوامها ألف مقاتل وأسرع بها في اتجاه دومة الجندل.

---

(١) **دُومة الجندل**: «قال أبو عبيد البكري: سميت دومة الجندل بدومي بن إسماعيل كان نزلها». [الروض الأنف]، وهي تبعد عن المدينة مسيرة ستة عشر يومًا. تاريخ الإسلام للذهبي ١/ ٢٥٨. وسيأتي التعريف بها في: سَرِيَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ شعبان ٦هـ.

قال الواقدي: «فَنَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ، فَخَرَجَ فِي أَلفٍ مِنْ الـمُسْلِمِينَ، فَكَانَ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، وَمَعَهُ دَلِيلٌ لَهُ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ يُقَالُ لَهُ: مَذْكُورٌ، هَادٍ خِرِّيتٍ (الماهر الذي يهتدي لأخرات المَفاوز، وهي طرقها الخفية ومضايقها... وإنما سُمي خريتًا لشَقِّه المفاوز)، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُعْنِفًا لِلسَّيْرِ، وَنَكَبَ (عدل) عَنْ طَرِيقِهِمْ، وَلَـمَّا دَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْ دُومَةِ الجَنْدَلِ ـ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا يَوْمٌ أَوْ لَيْلَةٌ سَيْرَ الرَّاكِبِ الْمُعْتِقِ (أعتق الراكب فرسه إذا أعجلها) ـ قَالَ لَهُ الدَّلِيلُ: يَا رَسُولَ الله، إنَّ سَوَائِمَهُمْ تَرْعَى، فَأَقِمْ لِي حَتَّى أَطَّلِعَ لَكَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نَعَمْ»، فَخَرَجَ العُذْرِيُّ طَلِيعَةً حَتَّى وَجَدَ آثَارَ النَّعَمِ وَالشَّاءِ وَهُمْ مُغَرِّبُونَ، ثُمَّ رَجَعَ إلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ وَقَدْ عَرَفَ مَوَاضِعَهُمْ، فَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى هَجَمَ عَلَى مَاشِيَتِهِمْ وَرِعَائِهِمْ، فَأَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ مَنْ أَصَابَ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ فِي كُلِّ وَجْهٍ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣].

هروب أهل دومة الجندل:

قال الواقدي: «وَجَاءَ الخَبَرُ أَهْلَ دُومَةِ الجَنْدَلِ فَتَفَرَّقُوا، وَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِسَاحَتِهِمْ، فَلَمْ يَجِدْ بِهَا أَحَدًا، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا وَبَثَّ السَّرَايَا، وَفَرَّقَهَا حَتَّى غَابُوا عَنْهُ يَوْمًا، ثُمَّ رَجَعُوا إلَيْهِ، وَلَمْ يُصَادِفُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، وَتَرْجِعُ السَّرِيَّةُ بِالقِطْعَةِ مِنْ الإِبِلِ، إلَّا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ أَخَذَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَتَى بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: هَرَبُوا أَمْسِ حَيْثُ سَمِعُوا بِأَنَّكَ قَدْ أَخَذْتَ نَعَمَهُمْ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ الإِسْلامَ أَيَّامًا، فَأَسْلَمَ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إلَى المَدِينَةِ». [المغازي للواقدي ١/ ٤٠٣-٤٠٤].

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَيْهَا، وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا، فَأَقَامَ بِالمدِينَةِ بَقِيَّةَ سَنَتِهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢١٣].

معاهدة عدم اعتداء:

قال ابن سعد: «وفي هذه الغزاة وادع رسول الله ﷺ عُيَيْنَة بن حصن أن يرعى بتَغْلَمِين (موضع في بني فزارة) وما والاه إلى المَرَاض (موضع، أو واد، على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة)، وكان ما هناك قد أخصب وبلاد عُيينة قد أجدبت، وتغلمين من المَرَاض على ميلين، والمَرَاض على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة على طريق الرَّبْذة». [الطبقات الكبير لابن سعد ٢/ ٥٩، والسيرة الحلبية ٢/ ٥٨٢].

مدة الغزوة:

قال ابن كثير: «قال الواقدي [نقله عنه الطبري في تاريخه ٢/ ٥٦٤] وفيه توفيت أم سعد بن عبادة ﷺ، وابنها مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة.

وقد قال أبو عيسى الترمذي في جامعه: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ أَبِي عَرُوبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّ أُمَّ سَعْدٍ مَاتَتْ وَالنَّبِيُّ ﷺ غَائِبٌ، فَلَـمَّا قَدِمَ صَلَّى عَلَيْهَا، وَقَدْ مَضَى لِذَلِكَ شَهْرٌ. [الترمذي في الجنائز (١٠٣٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

وهذا مرسل جيد، وهو يقتضي أنه ﷺ غاب في هذه الغزوة شهرًا فما فوقه على ما ذكره الواقدي رحمه الله». [البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٧، قال محققه: «وقال البيهقي في السنن الكبرى ٤/ ٤٨: وهو مرسل صحيح، وكذا قال الحافظ في التلخيص ٢/ ١٢٥»].

أهداف الغزوة:

يقول د/ الوكيل: «وظل المسلمون في المدينة زهاء أربعة أشهر، لا يكدر صفوهم شيء، حتى إذا كان ربيع الأول من السنة الخامسة، وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمر بهم، والتعرض لمن في القافلة بالأذى والظلم، كما وردت الأنباء بأنهم يفكرون في القرب من المدينة لعجم عودها.

إن دومة الجندل تعتبر بلادًا نائية بالنسبة للمدينة المنورة؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق بين البحر الأحمر والخليج العربي ـ خليج فارس، وهي على مسيرة ست عشرة ليلة من المدينة، ولو أن المسلمين أغفلوا أمرها، وسكتوا على وجود هذا التجمع فيها ما لامهم أحد ولا ضرهم هذا التجمع في شيء على المدى القريب، ولكن النظرة السياسية البعيدة توجب على المسلمين أن يتحركوا لفض هذا التجمع والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه للأسباب الآتية:

١ ـ لأن السكوت على هذا التجمع وما شاكله يؤدي بلا شك إلى تطوره واستفحاله، ثم يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوة المسلمين وإسقاط هيبتهم، وهو الأمر الذي يكافحون من أجل استرداده.

٢ ـ لأن وجود مثل هذا التجمع في الطريق إلى الشام قد يؤثر على الوضع الاقتصادي للمسلمين، فلو أن المسلمين سكتوا على هذا التجمع لتعرضت قوافلهم أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم للسلب والنهب مما يُضعف الاقتصاد، ويؤدي إلى حالة من التذمر والاضطراب.

٣ ـ وهناك أمر أهم من الأمرين السابقين وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حمايتهم وتحت مسؤوليتهم؛ لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم، أو يعرضهم للخطر.

لهذا ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألف من أصحابه، وكان يسير الليل، ويكمن النهار حتى يخفي مسيره». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٩-١٧٠].

٤ ـ حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة؛ لأن ظهور الدولة الإسلامية بهذه القوة يؤثر على نفسية قريش العدو الأول للدولة الإسلامية، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

٥ ـ الحرص على إزالة الرهبة النفسية عند العرب الذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الروم، والتأكيد عمليًّا للمسلمين بأن رسالتهم عالمية.

[ينظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع، ص١٤٤، ١٤٥ نقلًا عن السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٢٧-٢٢٨].

ويقول د/ أبو فارس: «مما تقدم نرى أن هدف النبي ﷺ من هذه الغزوة القضاء على تحشدات قبائل المنطقة، ومنعهم من قطع الطريق.

وهناك رأي آخر يقول بأن موعد افتتاح الجبهة الرومانية قد قرب، فلابد من القيام بأعمال تمهيدية في الشمال، ويلخص هذه الأعمال التمهيدية بعملين هما:

الأول: فرض هيبة الدولة الإسلامية على القبائل العربية المتاخمة لحدود الروم في الشمال، وإشعارهم بأن هذه الدولة تملك من القوة ما يمكنها من القضاء عليهم عندما تريد ذلك؛ لئلا يطمعوا بمهاجمة جنبات الجيش المتقدم لحرب الروم، أو لئلا يكونوا عونًا للروم على المسلمين.

الثاني: القيام باستطلاع مبدئي للطريق والأرض». **[التفسير السياسي للسيرة النبوية ص ٢٦٠].**

[غزوة الأحزاب لأبي فارس ٢٠].

وتحت عنوان «المغزى البعيد للحملة» يقول أ/ باشميل: «ولا يستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد قصد بهذه الحملة العسكرية التي قطع بها إلى دومة الجندل ست عشرة ليلة، لا يستبعد أن يكون قصد به إرهاب الرومان الذين تقع المنطقة التي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليال من عاصمة ملكهم الثانية دمشق.

بل لقد أكد الواقدي هذا في مغازيه». **[غزوة الأحزاب لباشميل ٨١-٨٢].**

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦٦٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢١٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٤٠٢-٤٠٤، الطبقات الكبير لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٥٨-٥٩، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٦٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٨٩-٣٩١، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٥٧-٢٥٨، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٥٥-٢٥٦، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٥ -٧، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٠١-٢٠٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٤/ ٤٨٤، السيرة الحلبية للحلبي (١٠٤٤هـ) ٢/ ٥٨١-٥٨٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٤٠٢، السيرة النبوية لرزق الله ٤٢٩-٤٣٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢٢٦.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: غزوة الأحزاب لباشميل ٧٩-٨٢، غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٩-٢٠، غزوة الخندق لأبي خليل ٦١-٦٢، مرويات غزوة الخندق للمدخلي ٣٤-٣٦.

خرائط غَزْوَةِ دُومَةِ الجَنْدَلِ

(١)

أطلس السيرة النبوية لأبي خليل ص ١٣٣.

(٢)

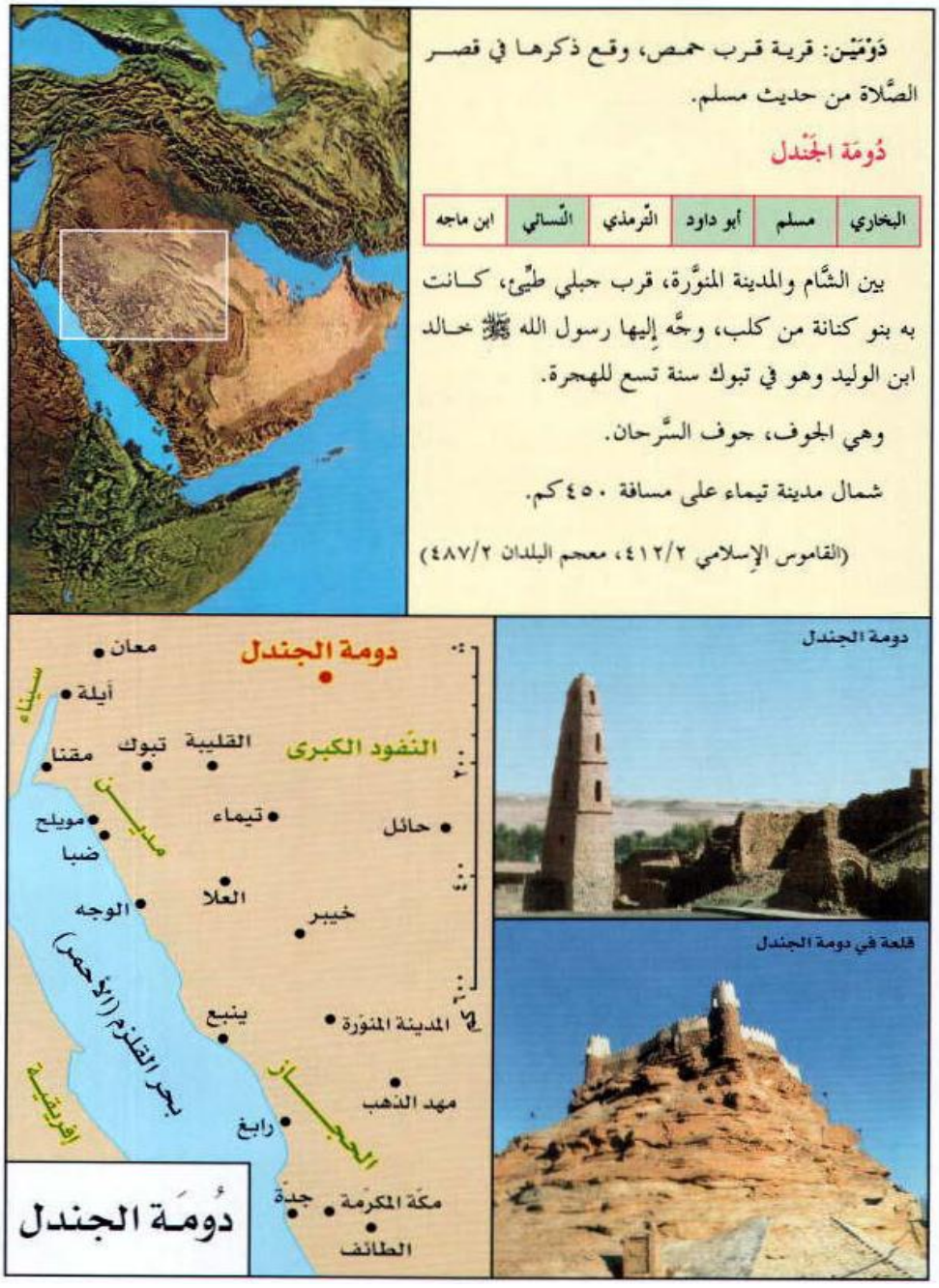

أطلس الحديث النبوي للكتب الصحاح الستة لأبي خليل ص ١٧٦.

(٣)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٣ ط٣ـ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٤)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٧٣ ط ٤ ـ ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٥)

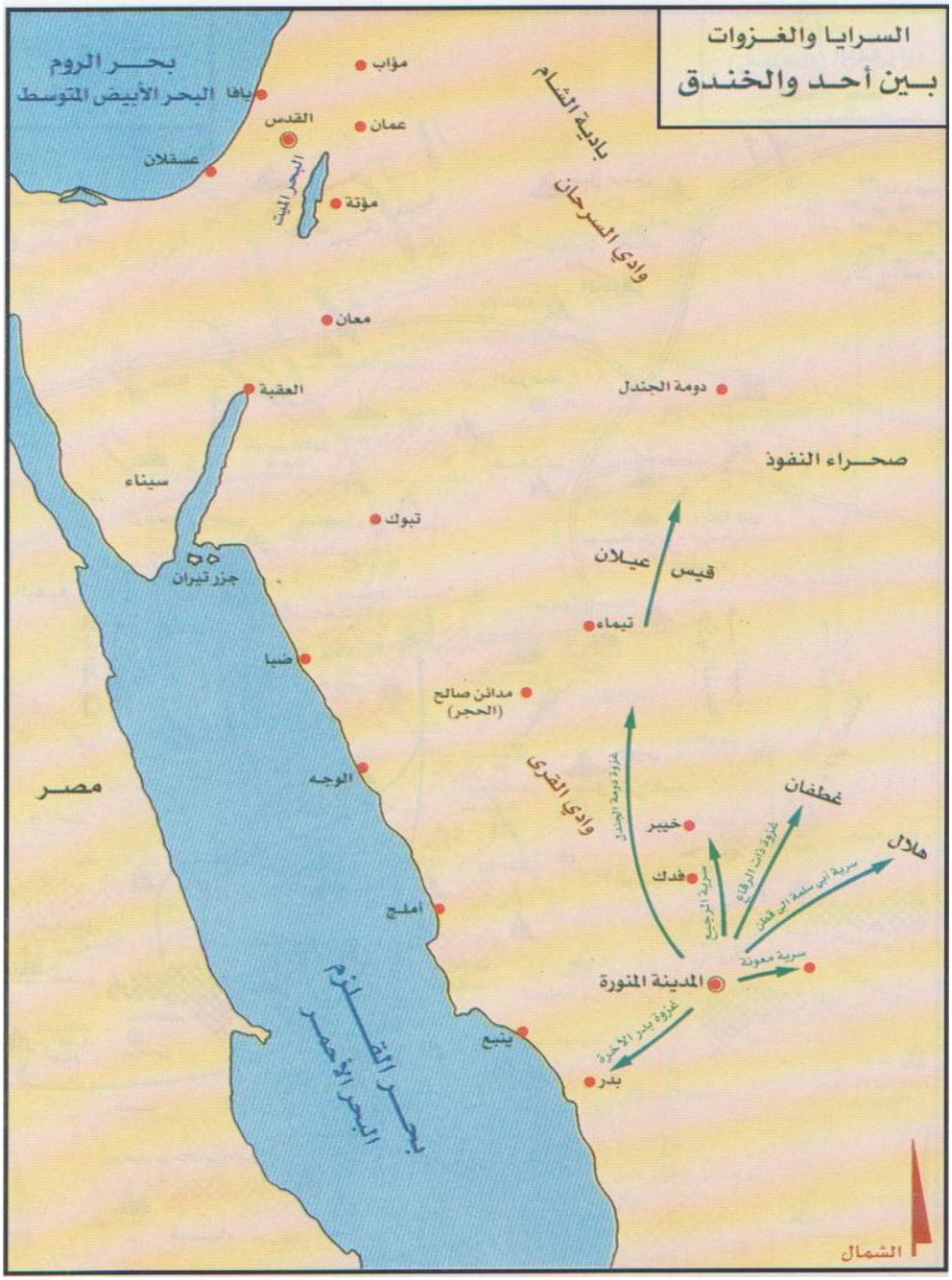

حدائق الأنوار لبحرق ص ٥٣٩.

(٦)

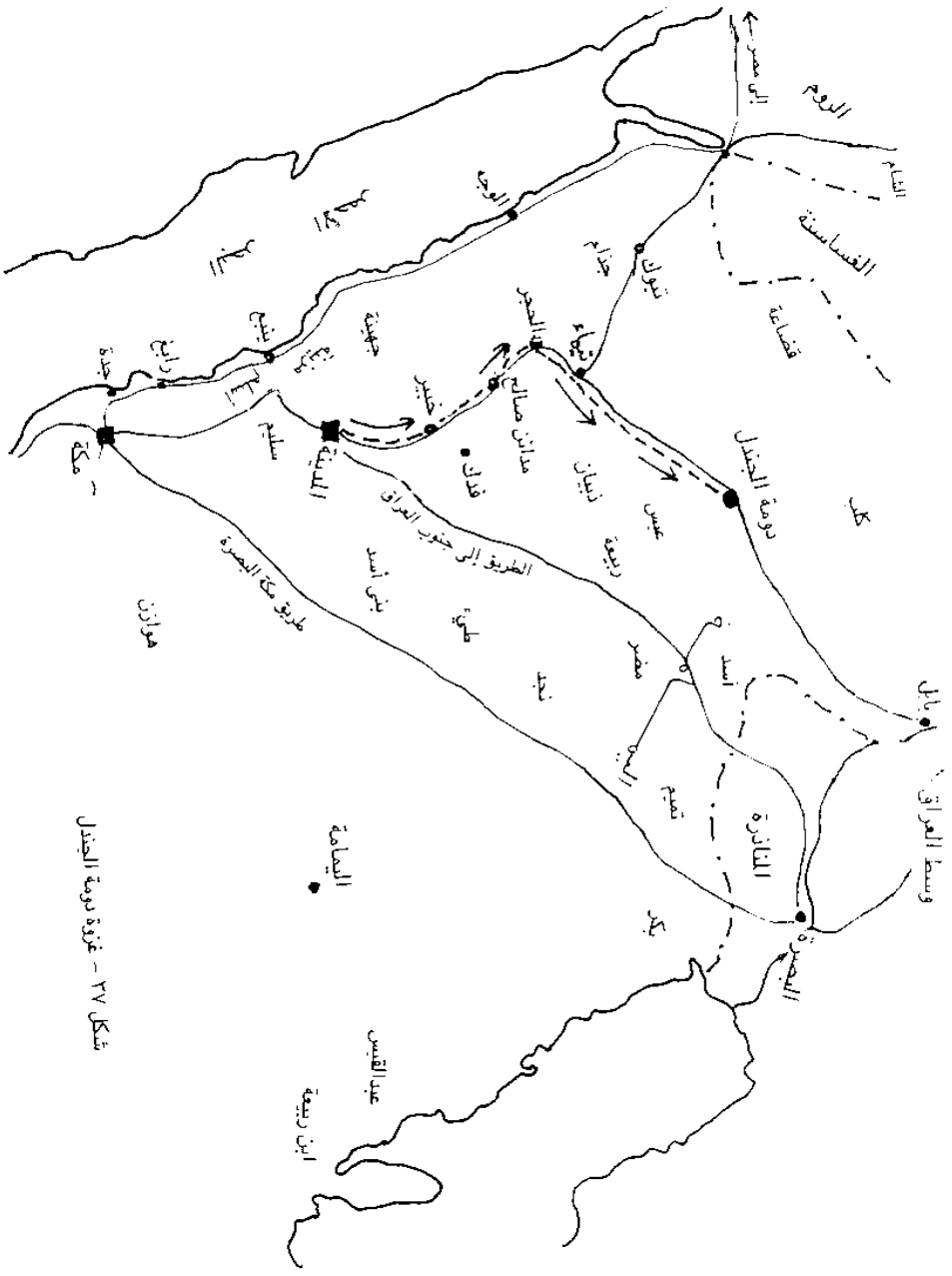

شكل ٢٧ - غزوة دومة الجندل

خاتم الأنبياء محمد ﷺ للبدراوي ص ٥٨١.